**المحاضرة الأولى : مدخل إلى النقد (1)**

ارتبطت الفلسفة بكل البدايات فماإن يذكر اتجاه إلا و تكون الفلسفة جزءا من القول، و لا غريب في ذلك أن الفلسفة كانت ندا لكل معتقد عند الإنسان القديم، و رغم المصائر المحزنة التي انتهى إليها الفلاسفة القدماء في زمانهم إلا أن أفكارهم كتب لها الخلود و الاستمرار رغم سذاجة بعضها، فكان العالم يعيش فراغا و ضياعا سببه البداية في ذاتها، و من سنن الخلق أن يبحث الإنسان عن مخرج كان المخرج في كل مرة أفكارا تكون في حينها مخالفة لما هو كائن أو موجود، و لهذا لم تنقطع الفلسفة عن زمان و لم تهدأ رغم القيود التي فرضت عليها لأسباب عديدة من بينها المعتقد كونه سلطة تقيد و تفرض و تحدد و تضبط، فنشأ الصراع الأبدي بين الفلسفة و الدين، فكان الفلاسفة أعداء للمتدينين في كل عصورهم، و رغم الانقلاب الذي أحدثته الفلسفة إذ أوجدت العلم سبيلا أخرج البشرية من ظلامهم إلا أن هذا لا يغفل فترة زمنية كاملة و طويلة عاشها العالم الغربي في ظل الفهم الخاطئي لدين المسيحية و الذي استمر قرابة ثلاثة عشر قرنا، كادت تطمس على إثرها معالم البشرية.

فعرفت الفلسفة على أنها نور الفكر و مرشده، و السبيل الوحيد الذي يعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ، ليس الخطأ بمفهوم الانحراف عن الصواب و لكن الخطأ معناه الخضوع الى سلطة غير سلطة الإنسان، و لعل المتتبع لتاريخ الفلسفة يجد أنها ارتبطت بحرية التفكير و رغم الاختلاف بين الاتجاهات الفلسفية إلا أنه لا يمكن العثور على متناقضات بينها، و لتوضيح ما تم التوطأة عليه، و للربط بين الفلسفة و الفكر، و للفصل بين الفلسفة و الدين نعرض الأسئلة التالية، ما هو مفهوم الفلسفة و ما هي حدود التفكير و ما هي مفارقات الفلسفة و الدين؟

**\*- مفهوم الفلسفة:**

لا يمكن الحديث عن الفلسفة دون تجاوز الاسطورة ذلك أن الفلسفة قبل صدتمها مع الدين، و الوقوع معه في صراع دائم كان الصراع في بدايته قائما بين الأسطورة و الفلسفة، فالأسطورة في ذاتها عبارة عن قصص تحكي عن ميلاد الكون ولكن تحت وصاية منظومة من الآلهة، الذين يينسب إليهم الفضل و يكون الإنسان في مقابلهم رهين هذه الإرادة، فالإنسان هامش و خاضع لإرادتهم، "يظهر إذن أن ميلاد الفلسفة قد واكب تحولين ذهنيين عظيمين، ظهور فكر وضعي يتنافر وكل شكل من أشكال الخوارق و يرفض التشبيه الضمني الذي تقيمه الأسطورة بين الظواهر الطبيعية و العوامل الخارقة للطبيعة، ثم ظهور فكر مجرد يخلص الواقع من قوة التغيير التي كانت الأسطورة تفرضها فيه، كما يقضي على الصورة العتيقة لوحدة الأضداد ليقول بمبدأ الهوية " ينظر كتاب: الفلسفة الحديثة ترجمة: محمد سبيلا و عبد السلام بن عبد العالي، من مقال ميلاد الفلسفة، ص 25.

و للبحث عن تاريخ محدد للفلسفة لا يمكن الوصول إلى تاريخ محدد ذلك أن تاريخها هو هذا الحيز الواسع الذي يأبى الانتساب الى أصل ، و لا الانتماء إلى اتجاه، " ليس للفسفة تاريخ في النهاية، الفلسفة هي ذلك المجال النظري الغريب الذي لا يحدث فيه أي شيء، اللهم ذلك التكرار للاشيء... و حينئذ يكون علينا أن نذهب أبعد من ذلك و نقول بأنه إذا لم يكن تاريخ الفلسفة كله سوى تكرار للحجج، تكرار يتم فيه صراع واحد و وحيدـ، فإن الفلسفة ليست إلا صراعا بين نزاعات، إنها ميدان الصراع الذي كان يتحدث عنه كنط و الذي يرمي بنا داخل صراعات إيديولوجية ذاتية محضة، ومعنى ذلك أن الفلسفة لا موضوع لها بالمعنى الحقيقي لكلمة موضوع، ذلك المعنى الذي نشير اليه عندما نقول بأن لعلم ما موضوعا" المرجع نفسه، ص 41.

لا يمكن الوصول إلى تاريخ محدد للفسفة و لا يمكن أن ترتبط كذلك بموضوع معين، فهي جزء من الإنسان المتحرر من قانون الطبيعة التي كانت تؤمن بها الأسطورة، و المرتبطة بالتفكير عامة، حيث لا يمكن الوصول معه إلى حدود تضبطه أو تحده، و لعل الحيز الذي يمكن أن يحوي الفلسفة في مجملها هو الفكر أو حرية التفكير أو فن التفكير أو هي البحث عن الحقيقة كما عرفها الفلاسفة اليونان، حرية تكون ضوابها حكمة فطر الإنسان عليها، و ليس مطلقا إذ مع الاتجاهات الفلسفية صارت الحكمة اتجاها تقليديا وجب معه تحرير الفكر أكثر فأكثر، و لعل التقريب بين الفلسفة و الفكر هو الحيز الأكثر ضبطا لمفهوم الفلسفة، و منه سار المفهومين جنبا إلى جنب يدعم كل منهما الآخر، في مقابل الأسطورة التي ما لبثت أن حل محلها التفكير الديني و الذي حكم على الفلاسفة اليونان بالموت و النهاية.

أما الصراع بين الدين و الفلسفة فتفسيره تلك المفارقة بين العقل البشري و العالم الماورائي، فلا تؤمن الفلسفة بكريق غير طريق العقل بينما يقيد الدين هذا الإنسان و يلزمه القوانين و الضوابط التي لا ينبغي أن يحيد عنها، فالفترة التي احتضنت الفلسفة في أوجها كانت الحضارة اليونانية و فيها تم رسم معالم التفكير البشري في أوجه، و فيها نبغ أكبر الفلاسفة و أعظمهم و من كان لهم الفضل في تحديد مفهوم العقل، بما هو النور الذي اهتدى به العالم إلى الحقيقة، و رغم النهاية المؤسفة التي انتهى إليها الفلاسفة، إلا أن أعمالهم واصلت طريقها في رسم معالم عالم جديد، رغم اصطدامه بمحاكم التفتيش و إعاقته إلا أن عصر النهضة كان بداية جديدة ولدت من رحم الوهم الذي عاشه العالم في القرون الوسطى.

و منه تم تجاوز هذه المرحلة و نسيانها، و الانتقال إلى مرحلة جديدة قوامها العقل و العلم و الحرية، و لعل الحرية و العلم هي وسيلة العقل في رسم حدود الحقيقة.